

ويُعتبر المخطوط كتاب يخط باليد لتمييزه عن الخطاب أو الأرقعة أو أي وثيقة أخرى كتبت بخط اليد خاصة تلك الكتب التي كتبت قبل عصر الطباعة.⁵

فالمخطوطات أذن ذلك النوع من الكتب التي كتبت بخط اليد لعدم وجود الطباعة وقت تأليفها، وتمثل المخطوطات مصادر أولية للمعلومات، موثقة وتخص دراسة موضوعات متعددة، ويعتمد عدد من الباحثين بشكل كلي أو جزئي على المعلومات الواردة في المخطوطات.⁶

إما يوسف زيدان فيعرف المخطوط بأنه ذاك التراث المخطوط الذي تركه السابقون من كتابات وكتب خطوها بأيديهم أو نسخها الناسخ على امتداد قرون الحضارة العربية الإسلامية ذات التاريخ الطويل.⁷

ثانيا - المفهوم الدلالي للفظ مخطوط:

بعد تعريفنا للمخطوط نحاول تقديم المفهوم الدلالي للفظ مخطوط وذلك حتى يتسنى لنا توضيح المعنى، وهذا بالتركيز على دراسة المصطلح من حيث الأصل والاستعمال والشكل؛ فنبحث الآن في مادة هذا اللفظ في اللغة مع محاولة رصد بداية تداوله وذلك باستشارة المعاجم واستقراء النصوص التي يمكننا أن تمدنا بمعلومات عن بدء استعماله، ومن الطبيعي عند أهل اللغة أن يبحثوا عن جذور الكلمات في أول نص عربي تم جمعه ألا وهو القرآن الكريم، ومن يقرأ في كتاب الله يجد أن الإشارة الوحيدة لهذا اللفظ هي ما جاء في قوله تعالى في سورة العنكبوت [وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون.]⁸

ولن نجد المستقرئ لدواوين الشعر العربي منذ الفترة الإسلامية إلى العصور المتأخرة أثر لكلمة مخطوط؛ كما تخلو المعاجم العربية منها باستثناء ما جاء عنها في تاج العروس للزبيدي (120هـ) وأساس البلاغة للزمخشري (538هـ). جاء في الأول: "خط الكتاب يخطه"⁹. وجاء في الثاني: "كتاب مخطوط أي مكتوب فيه"¹⁰

وتبقى العربية خلوا من هذا اللفظ حتى اختراع الطباعة التي ستحدث تحولا في الحضارة العربية وتفرز مصطلح مخطوط الذي ما كان ليظهر لو لا ظهور ما قابله وهو كلمة مطبوع.

ويصعب على الباحث في الوقت الراهن تحديد أول نص عربي ظهر فيه اللفظ لأن ذلك يدعو إلى استقراء شامل لكل النصوص الحديثة المتعلقة باكتشاف الطباعة؛ والذي لا شك فيه هو أن اللفظ مع ظهور الطباعة حصرية كانت أو سلكية، ولم يكن هذا الحديث خاصا باللغة العربية وحدها بل حدث هذا كذلك في اللغات الأخرى التي عرفت بلادها هذا الاكتشاف الجديد.¹¹

إن الباحث في لفظ مخطوط في اللغة الفرنسية يجد أنه استعمل لأول مرة في أحد نصوص هذه اللغة في سنة 1594 م أي في نهاية القرن 16 م ، وعلى الرغم من كون اللفظ لاتينيا فإن الفرنسيين استعاروه من اللغة الإيطالية التي عرفت استعمال اللفظ قبل فرنسا بحكم سبقها إلى التمسك بالنهضة الحديثة.¹²

أما لفظ *manuscriptum* اللاتيني فان ظهر في هذه اللغة منذ القرن الثالث الميلادي، ولم يكن يعني ما أصبح يعنيه كمقابل للمطبوع في عصر النهضة بل كان يدل على النسخة التي يخطها المؤلف بيده لا بيد غيره، ولم تكن اللغة اليونانية لتختلف عن اللغة اللاتينية في هذا الاستعمال، فلفظ مخطوط اليوناني الذي ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد كان يعني النسخة التي خطها المؤلف بيده، ولم تصبح في مقابل المطبوع إلا بعد عصر الطباعة، وقد أطلق على المخطوط اليوناني مصطلحات أخرى طوال العصر الوسيط¹³..

أما العرب فقد سمو الكتاب المخطوط تسميات متعددة تختلف باختلاف العصور، فقد أطلقوا عليه في القرن الأول الهجري الرقيم ، الزبور ، المصحف ، السفر ، الرسالة، الكنش ، الدفتر وغيرها من الأسماء؛ وقد أطلق على الكتاب في عصر التدوين والتأليف الديوان أو المدون والتأليف أو المؤلف والتصنيف أو المصنف وأبتداء من القرن الرابع للهجرة حين اكتملت النهضة العلمية والتأليفية في المجتمع العربي أصبح يطلق على مصادر التراث تسميات مثل الكتب الأصول ، الكتب الأمهات ، الكتب الأساسية لما تحويه من أساسيات العلم¹⁴ .

وان كان لفظ مخطوط مرتبط بصناعة المطبوع فأننا نشير أن المغاربة استعملوا عبارة نسخة قلميه في مقابل كتاب مطبوع قبل أن يجاور المشاركة في استعمال لفظ مخطوط¹⁵ .

وخلاصة القول فان مصطلح مخطوط حديث في كل اللغات وأن ظهوره أفرزه اكتشاف الطباعة؛ وإذا كان الاهتمام به كمتن قد بدأ منذ نهاية عصر النهضة الحديثة فأن الاشتغال به كقطعة مادية بدأ في القرن الماضي في إطار ما يسمى بعلم المخطوطات بمفهومه الحديث، وإذا كان المخطوط الأوروبي قد خطى خطوات متقدمة في هذا الإطار ، فأن المخطوط العربي الذي يعتبر أضخم تراث في العالم مازال في المرحلة الأولى من دراسته دراسة علمية .

ثالثا - ماهية المخطوط:

المخطوط هو الذي يتناول موضوعا من الموضوعات التالية، دينية أو أدبية أو فلسفية أو علمية باللغة العربية أو أي لغة أخرى؛ وقد تتبعها العالم الأوروبي **جوافروا روير** وأحصاها فوجدها مائة وتسعة وعشرين لغة، وهناك عدة تسميات تطلق على المخطوط، منها المخطوط العربي المسيحي وهو ذاك الكتاب الذي يكون صاحبه مسيحيا لكنه يكتب باللغة العربية ويتناول فيه موضوعا عربيا أو يعالج قضايا عقائدية مسيحية¹⁶ .

ومن التسميات التي سمي بها المخطوط ما اصطلح عليه في الغرب بالمخطوط الجامعي ويطلق على الكتاب الذي يتضمن المواد الأساسية التي تدرس في الجامعات الغربية نهاية العصر الوسيط وهي الطب واللاهوت والقانون والفنون الحرة، ولا يعتبر المخطوط جامعي ما لم يتناول هذه المواضيع أو العلوم؛ ومنها كذلك ما نعتوه بالمخطوط الحديث وهو الكتاب الذي خطه المؤلف بيده وقدمه للطابع أو الناشر وهو مصطلح حديث النشأة ظهر بعد اكتشاف صناعة الطباعة .

ومنها أيضا ما أصطلح عليه بالمخطوط المهجين؛ فالهجين في اللغة العربية من كان أبوه عربيا وأمه أعجمية، ويطلق هذا الوصف على المخطوط الذي يتم نسخه على مواد كتابية مختلفة كأن ينسخ جزء منه على الرق والجزء الآخر على الورق أو يكتب جزء منه على الكاغد العربي الأصيل وقسم على الورق الأوربي ومن الأمثلة على ذلك المعجم اللاتيني-العربي الذي تحتفظ به مكتبة جامعة ليدن بهولندة، حيث ورقنا العنوان والتخيمة من الرق ومعظم المتن نسخ على الورق وعلى الرغم من اعتبار هذا المعجم استثناء ومفارقة فإن تركيبه المزيج يبرز الانتقال التدريجي من الرق إلى الكاغد كمادة للكتابة، ومن التسميات التي أطلقت على المخطوط لفظ خزائي نسبة إلى خزانة والمخطوط الخزائي هو المخطوط الأنيق المزخرف المنسوخ نسخة جميلة رائعة برسم ملك أو أمير؛ وقد يكون مصحفا مذهبا أو كتابا مرصعا يكتبه خطاط ماهر، ولا تكاد تخلو خزانة من الخزانات العالمية من مجموعة من هذا النوع من المخطوطات وغالبا ما تعرض في أبناء المكاتب أو في نظائر الزجاج النادرة.

ومنها كذلك ما يسمى بالمخطوط الداعي، والداعي في اللغة العربية هو الذي لا يعرف أبوه، وفي مجال التراث هو ذلك المخطوط الذي لم يقابل على أصل من الأصول أو لم يكن في ملك عالم كبير أو لم يرتبط سنده بشيخ من الشيوخ، أو لم ينسخه نسخ معروف أو ما قابل ذلك، و في مقابل المخطوط الداعي نجد المخطوط الأصلي أو النسخة الأصلية وهي التي خطها المؤلف بيده أو اشرف على نسخها وصححها بنفسه.¹⁷

ومن هذه النعوت كذلك ما يسمى بالمخطوطة الألفية وهي التي كتبت سنة 450 هجرية وما قبلها ولا تزال باقية إلى اليوم، وهنا نخص بالذكر المخطوطات العربية خاصة دون غيرها من اللغات للحضارة الإسلامية كالفارسية والتركية.

إذن فإن مفهوم المخطوطة الألفية يقع حصرا على المخطوطات العربية دون غيرها ويستدل على ألفية المخطوطة من تاريخ نسخها، وهو المؤشر الأول على نسخها.¹⁸

ومنها كذلك ما يسمى عند الغربيين بالمخطوط العلمي الذي يبرز سمات خاصة قد تميزه عن المخطوطات عامة، ثم المخطوط النادر الذي لا توجد منه إلا بضع نسخ أو يتميز بصور وزخارف قد تميزه عن باقي المخطوطات، ومنها المخطوط الفريد الذي لا توجد منه إلا نسخة واحدة في العالم، وكم هي كثيرة تلك المخطوطات الفريدة التي تم تحقيقها اعتمادا على تلك النسخة الوحيدة، نذكر منها طوق الحمامة لأبن حزم المحفوظة في خزانة جامعة ليدن بهولندة، وكتاب العرجان والبرصان والعميان والحولان للجاحظ والجزء الخامس من كتاب المقتبس لأبن حيان المحفوظ كلاهما في المكتبة العامة والخزانة الملكية بالرباط. وكتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط المحفوظ بدار الكتاب بالقاهرة؛ وقيل المخطوط المؤرخ وهو المخطوط الذي يحمل تقييد ختامه تاريخ النسخ، وقيل المخطوط المطلق الذي يخلو من تاريخ النسخ.¹⁹

رابعاً - أهمية المخطوطات :

إن الاهتمام بالوثائق المتناثرة الضائعة وضرورة المحافظة على التراث الثقافي المكتوب للوطن والتنبيه إلى مدى الأهمية ينبغي أن يكون محل عناية توليها المؤسسات التوثيقية الوطنية لوثائقها؛ وحمايتها وصيانتها بالوسائل الحديثة والمتطورة، وبذلك تواكب الدول المتطورة التي تنفق مقدارا عظيما من الجهود والأموال الضخمة لحفظ الوثائق وزيادة عمرها الافتراضي²⁰.

ومن ثم يصبح من الضروري على مؤسساتنا التوثيقية العمل على تأسيس مخابر للترميم والتصوير والاستنساخ، وورشات للصيانة والتجليد، وهذا يعد دعم تقني يساهم في تحقيق سياسة الحفظ، وحماية التراث الوطني المكتوب، وخاصة منه الرصيد القديم²¹.

وتعتبر المخطوطات أحد المصادر الرئيسية التي يجد الباحث بين ثنايا سطورها الكثير من الحقائق التي تسد الثغرات الناقصة ويستكمل الحلقات المفقودة، وما لا شك فيه أن الدراسات التاريخية تعتمد اليوم اعتمادا كبيرا على المخطوطات المحققة باعتبارها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية التي يلجأ إليها في إضافة حقائق تاريخية وعلمية لم تكن معروفة لجل المؤرخين أو بعضهم الذين يعتمدون على المراجع الأدبية والتاريخية.²²

كما تعتبر المخطوطات من أنفس الوثائق في العالم كله، رغم ما تحويه من حشو كبير ذلك لأنها توضح لنا أمور كثيرة مما يخفى علينا من آمتنا وآثارها المعمارية والفنية وتمدنا بمعلومات وافية عن المعاملات التي كانت سائدة آنذاك، ويرد فيها كذلك ذكر للمقاييس والأوزان المختلفة وأسعار الأراضي والعقارات، والعلاقات الشخصية بين الأفراد، ومن المخطوطات نعرف الحياة اليومية لأرباب الوظائف المختلفة المدنية والتعليمية والحربية وأنواع الأسلحة والخطط الحربية وغيرها، كما تطلعنا بعض المخطوطات على الحياة الفكرية و نظم التعليم في المكاتب والمدارس، وعن الأعياد والمواسم والأجازات ومظاهر الحياة في شهر رمضان وعيدي الفطر والنحر، وكذلك عن التصوف وحياة الصوفية و الحياة الحربية للمجاهدين والمرابطين في القلاع.²³

كما أن أهمية المخطوطات تكمن أيضا في وصفها الدقيق لعدد من الآثار المعمارية الإسلامية مثل القصور، المساجد، الحمامات، الأبراج والقلاع وتخطيط المدن؛ كما أننا نجد فيها الألفاظ الاصطلاحية الفنية الخاصة بصناعة البناء ومواده المختلفة، كما نجد في صفحاتها القواعد الأساسية لجميع العلوم مثل الدين، الطب، الرياضيات، الكيمياء، علم الفلك.... الخ.²⁴

وتعمل المخطوطات أيضا على التقرب بين الناس، والتعرف بها يشبه الغوص في أعماق الطبيعة أو فهم الفن وتمثيله وهي بهذا توسع أفق الإنسان و تشرف كل حياته وتجعل منه عضوا فعالا في الحركة الإنسانية العظيمة في طريقها الثقافي، فالمخطوطات إذن كالطبيعة وكالفن يجب أن تكون ثروة لكل الناس الذين يفهمونها

ويحسوها، ويجب أن تكون مفتوحة لكل العلماء فعلى الناس الذين وهبهم القدر مؤقتا وفي حدود حياتهم أن يكونوا أصحاب خزائن للمخطوطات لا ينسوا هذا وعليهم أيضا ألا يصبح مثلهم مثل الفارس البخيل.²⁵

كما أن أهمية المخطوطات تكمن في أنها عبارة عن وثيقة تاريخية لا يمكن الاستغناء عنها بشكل أو بآخر، فأدركت الأمة قيمتها فراحت تبحث عن هذه القطع الأثرية الثمينة، وتخرجها من أحشاء المكتبات من أجل التوثيق العلمي والاستفادة منها في رحلتها الحضارية.²⁶

وتعتبر المخطوطات كنوز تراثية غنية بالمعارف والعلوم والثقافات العربية الإسلامية، ذات العمق الإنساني وذات الحضور الممتد عبر القرون، وهي بمثابة نسيج ثقافي يحمل أطيافا عديدة من المعرفة الإنسانية التي تبث نور حضارتنا العربية الإسلامية على العالم، متحدية عوامل الاندثار ومحصنة ضد تقلبات الأزمان فبقيت حية نافعة حتى يومنا هذا.²⁷

ومع تعدد مصادر الوثائق واختلاف أنواعها وتباين عصورها وتفاوت لغاتها ، فتعتبر المخطوطات عامل فعال في خدمة الحضارة الإنسانية، لأنها ضمير الشعوب وعنوان بارز في تاريخها، وهي الذاكرة الواعية كما أنها أصبحت سجلا حافلا لتقدم الحضارة وتطورها ورسالة تواصل بين أجيال مختلفة إلى جانب أنها عبرة للماضي ومدخلا لاستقراءه من أجل بناء المستقبل، ويمكن التحقق من أهمية الوثائق وأثرها فيم أكده **العالمان الكسندر وبيرك**: "أنه لو تحطمت كل الآلات الحديثة ومعامل الذرة وبقيت دور الوثائق والمكتبات لتمكن رجال العصر والعلماء من إعادة بناء الحضارة الآلية والذرية، ولكن لو ضاعت الوثائق والكتب فإن عصر القوى الآلية وعصر الذرة يصبحان شيئا من آثار الماضي".²⁸

وتعد الوثيقة المادة الوحيدة التي تعكس صورة الماضي بكل ما فيه مما جعلها المرجع الأساسي للبحث العلمي، وأصبحت أهميتها تعتمد في الأساس على المعلومات التي تحملها، والحقيقة التي لا يرقى إليها الشك أن الوثيقة هي المعين الذي يستمد منه الباحث مصادره التي يركز عليها في دراساته وأبحاثه ويؤكد على جوهرها وتمده بالحقائق الصائبة أو تفتح له مجال النقد فيتوصل من خلال دراسة الوثيقة إلى دحض فكرة شائعة أو التأكيد على نظريات قائمة تتفاعل مع الحضارة الإنسانية فتغير في وجهات نظر، أو تثبت حقائق قائمة.²⁹

كما تعتبر المخطوطات المصدر الذي يستمد منه الباحث المعلومات التي يركز عليها في دراساته وتمده بالحقائق وتفتح له مجال النقد، وتؤكد للباحث حقائق ثابتة يعتد بها العلم.³⁰

الهوامش والإحالات:

¹ – Marcel Dekker.thompson lawrence.s.manuscript in encyclopedia.of library and information science. New York.1968.vol .17. p. 118.

² –N. Macmillan . Educational Collier s Dictionary.1986. Vol. 12. p622.

³ – عبد اله عبد الرحيم عسيان، تحقيق المخطوطات بين الواقع و النهج الأمثل ، مكتبة الملك فهد ، الرياض ، 1994 ، ص39

- 4- عبد الستار الخلوji، المخطوط العربي، ط2، مكتبة مصباح، جدة، 1989، ص15.
- 5 - عامر إبراهيم، قنديلجي. رنجي مصطفى عليان، مصادر المعلومات من عصر المخطوطات إلى عصر الإنترنت، عمان، دار الفكر، 2000، ص44.
- 6 - مُجد الشوڤخات، أحمد مهدي، الموسوعة العربية العالمية، ج22، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة، 1999، ص25.
- 7 - يوسف زيدان، التراث المجهول إطلالة على عالم المخطوطات، دار أمين للنشر و التوزيع، الأسكندرية، 1994، ص11.
- 8 - القرآن الكريم، سورة العنكبوت، الآية 47.
- 9 - أحمد شوقي بنين، ما المخطوط، مجلة دعوة الحق العدد 337، السنة 45، العدد الأول، ماي يونيو، 2004م. ص20.
- 10 - الزخشي، أساس البلاغة، تحقيق مُجد باسل عيوان الود، ج1، ط2، منشورات مُجد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1998م، ص256.
- 11 - أحمد شوقي بنين، المرجع السابق ص20.
- 12 - www.habous.gov.ma
- 13 - أحمد شوقي بنين ومصطفى طوي، معجم مصطلحات المخطوط العربي، قاموس كوديكولوجي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط2، 2003م، ص164.
- 14 - نفسه، ص165.
- 15 - أحمد شوقي بنين، المرجع السابق، ص21.
- 16 - G. Troupeau .les actes du arabe .waqf des manuscrits arabes chetiens dons la tradition manuscrite en écriture- paris .2002.p45
- 17 - www.habous.gov.ma
- 18 - أحمد أبو زيد، المخطوطة الألفية كنوز مخفية، مجلة الحج و العمرة، جدة المملكة العربية السعودية، السنة الحادية و الستون، ع 10، شوال 1427هـ، ص42.
- 19 - أحمد شوقي بنين، المرجع السابق، ص30.
- 20 - الرفاعي عبد المجيد، يوم الوثيقة: يوم الإبداع والتعاون الخلاق، مجلة العربية 3000، س2، ع3، 2001، ص1.
- 21 - سباح خضراء، تقنيات الحفظ والترميم في المكتبة الوطنية الجزائرية، مجلة العربية 3000. س2، ع3، 2001، صص، 218-226.
- 22 - المنظمة العربية للتربية والثقافة، الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة البيبليوغرافية والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية، 1971، ص373.
- 23 - المنظمة العربية للتربية والثقافة، المرجع السابق، ص376.
- 24 - المرجع نفسه، ص377.
- 25 - كراتشوفسكي، مع المخطوطات العربية من الذكريات عن الكتب و النشر، تعريب منير مرسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ص132.
- 26 - مُجد عبد الشفيق القوصي، مخطوط الصاحي في فقه اللغة للرازي، مجلة الحج و العمرة، جدة المملكة العربية السعودية، السنة الثانية و الستون، ع3، ربيع الأول 1428هـ، ص74.
- 27 - أحمد أبوزيد، المرجع السابق، ص43.
- 28 - عبد الله أنيس طباع، علم الإعلام والوثائق والمخطوطات، دار الكتاب اللبناني، 1986، ص55.

29 - عىء الله أنيس طباع؁ علم الإعلام؁ ءار الكآاب اللبنانى؁ 1975 - 1980؁ ص65.

30 - سليمان موسى؁ الوثائق وأهميتها؁ مجلة الوثائق العربية؁ الفرع الإقليمى العربى للمجلس ءولى للوثائق؁ بغداد؁ ع 2؁ ص18.